الأُسوة الحسنة [1]

نستأنف اليوم حديثاً بدأناه فى الأسبوع قبل الماضى مع الداعية الإسلامى الكبير الدكتور يوسف القرضاوى عميد كلية الشريعة بقطر وصاحب العديد من الدراسات والأبحاث فى مجال الفكر الإسلامى ..

يحدثنا اليوم عن أسباب التطرف لدى بعض الشباب وكان قد عالج هذا الموضوع فى كتابه « الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف » فيقول :

« إن ثمة أسباباً كثيرة لهذا التطرف .. منها ما هو علمى وفكرى ونفسى ، ومنها ما هو اجتماعى وسياسى ، كذلك فإن للفراغ الدينى دوره فى هذا الموضوع بسبب عدم وجود كثيرين من الدعاة الذين يُعلِّمون الناس الإسلام الصحيح » .

ويرى الدكتور القرضاوى : أن التطرف يحتاج إلى حكمة فى معالجته فلا ينبغى أن نقف ممن نعتبرهم متطرفين موقف ممثل الاتهام ، وإنما ينبغى أن نقف منهم موقف الأبوة ، نشعرهم بقربهم منا وحرصنا عليهم .. ومن هنا نستطيع أن ندخل إلى قلوبهم وعقولهم ونبدأ فى إقناعهم بالإسلام الصحيح ونعرض عليهم الحجج ، وهى معنا كثيرة ، وهى دائماً فى جانب الاعتدال .. فليس فى الإسلام إفراط ولا تفريط ..

ويركز الداعية الإسلامى الكبير على أن يقوم بهذه المهمة علماء لا شُبهة عليهم لأن بعض مَنْ يقومون بها قد يُتهمون عند بعض الشباب بأنهم دعاة للسُلطة أو أنهم أبواق لغيرهم ويعملون لحساب الآخرين .. ولهذا من المهم لكى نرد هؤلاء الشباب إلى صراط التوازن ونخرجهم من هذا الغلو والتطرف أن نراعى هذا الجانب عند مَنْ يخاطبون الشباب ..

*

(١) نشر فى جريدة الأهرام - القاهرية - بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٨٦

ثم ينتقل بنا الحديث مع الدكتور القرضاوى إلى موضوع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية .. هل يبدأ التطبيق على الفور - كما يرى البعض - أم لا بد من التهيئة ؟

فيقول : « إنه أولاً يحب أن يؤكد على أن الإسلام كما يفهمه هو نظام حياة يصحب الإنسان فى رحلة حياته من « صرخة » الوضع إلى « أنَّة » النزع ، بل من قبل أن يولد وبعد أن يموت .. لأن هناك توجيهات وأحكاماً تتعلق بالجنين فى بطن أمه وأحكاماً أخرى تتعلق بالإنسان بعد موته كتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وتنفيذ وصاياه وقضاء ديونه وتوزيع تركته ..

الإسلام الذى يفهمه منهاج حياة كامل ، ولا يجب قصره على الجانب القانونى وحده ، والعقوبات تدخل فى هذا الجانب .. صحيح أن الحدود جزء لا يتجزأ من الشريعة ولكنها ليست كل الشريعة » ..

وعن طريق التطبيق يقول : « لا بد من تهيئة ، وإن كانت هناك أشياء لا تحتاج إلى تهيئة ، ينبغى أن نبدأ بها على الفور كتنقية المجتمع من المظاهر غير الإسلامية .. أما الأمور التى تحتاج إلى تهيئة فهى تتعلق مثلاً بالنظام الاقتصادى ونظام التعليم ، فهذا لا يتم بين يوم وليلة .. لا بد أن نكون واقعيين ونقول بالتهيئة أولاً ، بشرط ألا يُتخذ هذا سبيلاً لإرجاء الأمر وتمويته .

يجب أن نعود إلى الإسلام كله ، عقيدة وعبادة وأخلاقاً وشريعة ، وينبغى أن نضع خطة لتحويل المجتمع إلى مجتمع إسلامى .

فى عصور الاشتراكية كانوا يقولون : نحن لم نطبق الاشتراكية ، بل نحن فى مرحلة التحول الإشتراكى ..

نحن أيضاً نريد مرحلة التحول الإسلامى . والتحول ليس مجرد كلام يُقال ، بل يحتاج إلى خطة وتحديد منهج وتحديد وسائل ، كما يحتاج إلى تحديد مراحل ، كل مرحلة تُسَلِّم إلى ما بعدها حتى يتحقق التطبيق الكامل » .

.. وما زال الحديث مستمراً مع الداعية الإسلامى الكبير الدكتور يوسف القرضاوى .

* * *

هل نعيد كتابة تاريخنا الإسلامى [1]

فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى مع مَنْ ينادى بإعادة النظر فى كتابة تاريخنا الإسلامى تدفعه إلى ذلك أسباب منها :

أن زيفاً كثيراً قد تعرَّض له تاريخنا الإسلامى فى فترات بعينها لعبت فيها الأهواء دورها .

ومنها : أن تاريخنا الإسلامى قد كُتِب نقلاً عن روايات شفهية ينقص أكثرها السند والتوثيق .

لكنه يضع شروطاً يركز عليها ويحددها تفصيلاً مطالباً بمراعاتها عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامى وإلا أصبح الأمر فوضى وأصبحنا فى حاجة إلى إعادة كتابته من جديد !

يقول الدكتور القرضاوى : « إن التاريخ ذاكرة الأمة ومرآة ماضيها التى تنطلق منها إلى مستقبلها ، ولا يجوز للأمة أن تهمل تاريخها وتبدأ من الصفر إلا إذا كانت أمة فاقدة لذاكرتها فهى أمة مريضة إذن ومبتلاة ، ولو جاز هذا لأمة من الأمم لما جاز لأمتنا الإسلامية التى صنعت تاريخاً من أعرق التواريخ وحضارة شامخة الذرى فاقت الحضارات بشمولها وتوازنها وربانيتها وإنسانيتها وأخلاقيتها ، فلا غرو أن يهتم العلماء والمفكرون بالتاريخ وكتابة التاريخ .

ومن هنا أتفق مع مَنْ نادوا بإعادة النظر فى كتابة تاريخنا الإسلامى بشرط أن يبدأ ذلك بمنهاج قويم وفى ضوء مفاهيم واضحة ومن منطلقات يُتفق عليها وإلا أصبح الأمر فوضى ، وأصبحنا بعد إعادة كتابة تاريخنا الإسلامى فى حاجة إلى أن نطالَب بإعادة كتابته مرة أخرى ، وهكذا يدور الأمر أو يتسلسل !

---

(١) نشر فى جريدة الأهرام - القاهرية - بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٩٨٨ أجرى الحوار الاستاذان سيد أبو دومة وسامى دياب .

● تاريخنا تعرَّض لكثير من الزيف :

والذى يجعلنا نوافق الداعين إلى إعادة كتابته بمنهج جديد أن تاريخنا تعرَّض لدخول كثير من الزيف إليه وخاصة فى فترات معيَّنة لعبت فيها الأهواء دورها ، ودخلت فيها عناصر مخربة ، واستغلث فيها قُوَى خفية الفتن التى حدثت والتى كانت لها هى أصابع ذات أثر كبير فى تحريكها وإشعالها وإيصالها إلى أمد لم يكن يتوقعه أحد » .

* *

● روايات شفهية ينقصها السند والتوثيق :

ويستطرد الدكتور القرضاوى : « إن تاريخنا الإسلامى قد كُتِبَ نقلاً عن روايات شفهية ينقص أكثرها السند والتوثيق ، لهذا كان أهم ما نحتاج إليه فى كتابة تاريخنا الإسلامى هو توثيق المصادر ، ولا أعنى بتوثيق المصادر مجرد أن يقال : هذه الواقعة ذكرها الطبرى أو البلاذرى أو ابن الأثير فى كتابه كذا الجزء كذا ، فهذا ليس توثيقاً ، فإن هؤلاء المؤرخين قد جمعوا فى كتبهم الصحيح والضعيف والموضوع ، وكان أكبر همهم أن ينقلوا كل ما بلغهم من روايات دون أن يُعمِلوا مبضع الجرح والتعديد فى رواتها أو يتأملوا فى متونها وموضوعاتها كما فعل علماء الحديث فى نقد رواياته .

ومن هؤلاء المؤرخين أنفسهم علماء كبار فى علم الحديث ومعرفة الأصول اللازمة لنقد الروايات والمعايير العلمية بتوثيقها أو تصنيفها ، ولكنهم لم يستخدموا خبرتهم هذه فى نقد الروايات التاريخية ، والطبرى مثال بارز لهذا النوع من العلماء ، فهو فى كتبه الحديثية والفقهية ينقد الأسانيد ويمحص الروايات ويقبل منها ويرد حسب المقاييس العلمية المعروفة ، ولكنه لم يفعل ذلك فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » المعروف بـ « تاريخ الطبرى » .

وسبب ذلك فى يقينى أمران :

الأول : أنه يرى أن التشدد فى الأسانيد والنقد للروايات إنما يجب فيما يتعلق بأمر الحلال والحرام والفرائض وغيرها ، أما التاريخ فهو فى نظره لا يستحق هذه المعاناة ، وهذا ما ذكره بصراحة فى مقدمة تاريخه فقال : « إننا لم نرد بهذا الكتاب الاحتجاج أو الاستدلال » .

الأمر الثانى : أنه نقل الروايات بأسانيدها ، وهم يقولون : « مَنْ أسند لك فقد حَمَّلك » ، أى حمَّلك مسئولية البحث عن السند .

* *

● فلنعد إلى منهج الجرح والتعديل :

وهذا كان سهلاً فى زمنهم حيث كان الناس على صلة بعلم الأسانيد ومعرفة الرجال ، إذا ذُكِرَ راوٍ معيَّن عرف الناس قيمة الرواية التى يرويها ، لكن الخطر يكبر حينما يفقد الناس هذه المَلَكة وهذه المعرفة ، فإذا قرأ أحدنا كتاباً مثل تاريخ الطبرى استوت عنده كل الأسماء التى تقترن بالروايات .

وواجبنا الآن أن نرجع إلى منهج المحدِّثين - أى منهج الجرح والتعديل فى نقد الأسانيد التى تروى بها الوقائع التاريخية فى أمهات الكتب وفى غيرها من الكتب التى تُروى بالأسانيد أيضاً ولو كانت كتب أدب كالأغانى أو العقد الفريد أو نحو ذلك .

* *

● أمور ينبغى أن تراعى :

ويركز الدكتور يوسف القرضاوى على أمور ينبغى أن تراعى فى رأيه عندما نعيد كتابة تاريخنا الإسلامى :

* فيجب أن نكون عُدولاً فى نظرنا إلى هذا التاريخ ، فلا يجوز أن نضخم ناحية من النواحى السلبية على حساب النواحى الإيجابية .

فإذا أخذتَ كتاباً كالأغانى وأردتَ أن تأخذ منه صورة المجتمع فى العصر العباسى فلقد ظلمتَ العصر العباسى ... فكتاب الأغانى يمثل شريحة معيَّنة من المجتمع ليست هى المجتمع الحقيقى ولا أغلبه .

كذلك ينبغى أن نكون عُدولاً عند تقويم الأشخاص ، فإذا أردنا أن نُقوِّم شخصية كشخصية هارون الرشيد فعلينا أمران :

الاول : أن نميِّز بين الصحيح وغير الصحيح من الروايات التى تتحدث عن الرشيد ، وما أكثر التزييف فى هذه الأشياء وخاصة من الذين يهوون المبالغات ويجعلون من الحَبَّة قُبَّة .

والثانى : أن نُقوِّم الشخص بمجموع أعماله ومواقفه وآثاره ، فرجل كالرشيد كان يغزو عاماً ويحج عاماً ، وكان يستنصح الوعَّاظ ويبكى عند الموعظة ، ويقوم الليل ويكرم العلماء ، فمثل هذا لا يُتصورأن يكون بالصورة التى يأخذها كثير من الناس من « ألف ليلة وليلة » ويسمون ذلك تاريخاً !

* ويجب أيضاً عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامى ألا نُخضعه للأهواء والتيَّارات الأيديولوچية المختلفة ، فالليبرالى يريد أن ينظر إلى تاريخنا من وجهة نظر ليبرالية أو رأسمالية ، والاشتراكى أو الماركسى يريد أن يكتب التاريخ الإسلامى ويفسر فى ضوء التفسير المادى ، ويريد أن يقسر الأحداث قسراً لتمشى فى ركاب نظريته حتى إنه يُقسِّم الصحابة بين يمين ويسار ، ويدير عجلة التاريخ على هذا الأساس .

كما أن المتطرفين من القوميين يريدون أن يكتبوا تاريخنا الإسلامى من وجهة قومية بحتة ، ينصرون فيه العروبة على الإسلام ، ويقيمون بينهما حرباً لا مبرر لها . فالإسلام هو صانع أمجاد العروبة ومخلد ذكرها وباعث أمتها وصاحب رسالتها ، والعروبة هى وعاء الإسلام ولغتها هى لسانه وأرضها هى حرمه ، ولكن قوماً يريدون أن يحذفوا الإسلام ويبقوا العروبة وحدها .. فهى حضارة عربية لا إسلامية وهى بطولات عربية لا إسلامية ، حتى مَنْ لم يكونوا عرباً من

ناحية العنصر جعلوهم عرباً كعماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، وهؤلاء مسلمون عرَّبهم الإسلام .

* ويجب ألا ننسى إذا كتبنا عن الصحابة فى تاريخنا الإسلامى أن هؤلاء الصحابة هم الذين آمنوا برسول اللّه ﷺ ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه من المهاجرين والأنصار ، وأن القرآن الكريم أشاد بهم وأن الرسول ﷺ ذكرهم بكل خير وحذَّر من الإساءة إليهم ، فأى كتابة عنهم ينبغى أن تضع هذه العناصر المتفق عليها فى اعتبارها لا على معنى أن الصحابة معصومون وأنهم لا يقع منهم خطأ ولكن على ما قاله النبى ﷺ فى شأن واحد من أهل بدر أخطأ خطأً كبيراً عند تخطيطهم لفتح مكة ، حتى هَمَّ عمر أن يضرب عنقه قائلاً إنه قد نافق، فقال النبى ﷺ : « وما يدريك يا عمر .. لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » ، فعلَّمه النبى ﷺ أن الرجل الذى له تاريخ لا يسقط بموقف واحد وأن سوابقه تشفع له ، وهذا هو العدل والإنصاف فى النظرة إلى هذه المرحلة الخطيرة من مراحل تاريخنا العظيم .

* وينبغى أن نراعى عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامى أن التاريخ ليس هو التاريخ السياسى فقط ، اعنى أن التاريخ ليس هو تاريخ الملوك والحكام وحدهم ، وإنما يجب أن يكون تاريخ الشعوب والمجتمعات أيضاً .

وكذلك فإن تضخيم الجانب العسكرى فى تاريخنا الإسلامى - ابتداء من السيرة النبوية وما بعدها - أعطى انطباعاً لدى الناشئة وغيرهم بأن الإسلام دين سيف وحرب ، وأنه معركة مستعرة الأوار مستمرة اللهيب ، فالسيرة النبوية غزوات ، وعهد أبى بكر وعمر فتوح ، وعصر عثمان وعلىّ حرب أهلية ، وعصر الأمويين عصبيات وحروب ، مغفلين جانب الرسالة وجانب الدعوة وجانب الحضارة فى هذا التاريخ ، وهذا كله يجب أن يصحح وأن ينظر إلى التاريخ نظرة شاملة متكاملة .

* كذلك يجب أن ننبه إلى أن كثيراً ممن يكتبون فى تاريخنا الإسلامى يقعون - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - أسرى لما كتبه المستشرقون فى هذا الجانب .

ولا ننكر أن للمستشرقين جهوداً فى كتابة تاريخنا وغيره من نواحى تراثنا الرحب ، ومنهم منصفون إلى حد كبير ، ولكن قلّما تخلو كتاباتهم من ثغرات وآفات بعضها يرجع إلى طبيعة تكوينهم الفكرى والعقائدى فهم ينظرون إلى العالَم كله وإلى التاريخ كله من زاوية الغربى الذى يرى أن أوروبا هى أم الدنيا وأن الحضارة من هناك بدأت وإليها انتهت ، كما أن نظرتهم إلى الإسلام تحكمها عُقَد موروثة منذ الحروب الصليبية .. قد تكمن ولكنها لا تزول ، وتختفى ولكنها لا تموت !

وقد اعترف كثير منهم بهذه العُقْدة إذا كتبوا عن الإسلام والمسلمين .

ومن هنا ينبغى ألا تؤخذ النتائج التى وصلوا إليها قضايا مُسلَّمة ، وإنما ينبغى أن تناقش فى ضوء منهج النقد والتمحيص للروايات .

ويستنكر الدكتور يوسف القرضاوى وصف البعض لتاريخنا الإسلامى بأنه ظلمات بعضها فوق بعض ، وبأن الغالبية العظمى من حكامنا المسلمين - بعد عصر الراشدين - كانوا حكام ظلم فيقول : « إن فى ذلك ظلماً أى ظلم ، وتحاملاً أى تحامل على تاريخنا » .

* * *